الفصل الأول

السياق التصويري في المستوى النفسي

تعمد السياقات التصويرية في القرآن الكريم إلى تفريعات دلالية في بنائها التركيبي للإشارة إلى الانفعال النفسي، والتحولات التي تمرُّ بها المشاعر الإنسانية حيال الأحداث والمواقف المتنوعة التي تمر بها، فتأتي تلك التفريعات مسايرة للموقف العام، ومجسدة لأحداثه، فتبرز الشعور الذي ينتاب النفوس مع كل حدث وتبرز التحولات النفسية من حال إلى آخر.

☒ سياق تصوير الهزيمة والكرب بالضيق النفسي:

كقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

فالسياق يصور المعركة بأحداثها ومراحلها النفسية التي تحسسها المسلمون وانتقلت إليهم آثارها حسيًّا ومعنويا، والسياق يجزئ الصور بحسب الموقف النفسي والانفعالات التي تصاحب كل صورة «فمن انفعال الإعجاب بالكثرة، إلى زلزلة الهزيمة الروحية، إلى انفعال الضيق والحرج حتى لكأنَّ الأرض كلها تضيق بهم وتشد عليهم، إلى حركة الهزيمة الحسيّة، وتولية الأدبار والنكوص على الأعقاب»[1]، وبعد ذلك يأتي شعور الطمأنينة واليسر بعد العسر، واللطف بعد الكرب والشدة، إذ ترسم الصورة ملامح الاستشعار بنصرة الله تعالى بإنزال السكينة والتأييد بالجنود والتكفل بالحماية والمعونة.

---

(١) في ظلال القرآن: مج٢/ج١٠/٨٧٠.

ويلاحظ، أنَّ السياق يصور هذا الشعور تصويراً سيند إلى المجاز، حين يجعل للسكينة وجوداً وحياةً فتنزل فتثبت النفوس بها وتركن القلوب إليها، وتمحو آثار الانفعالات وحالة الثوران النفسي، فتكاد ترسم حالة التحول العكسي للانفعالات، إذ تحقق بنزولها جو الهدوء وحالة الطمأنينة، فكانت سببا في تحقيق النصر وهزيمة الأعداء، والسكينة: في الثبات واطمئنان النفس بعد تحرّك، ويستعمل في الاستيطان و لزوال الرّعب[1]، «وتعليقها بإنزال الله، وإضافتها إلى ضميره: تنويه بشأنها وبركتها وإشارة إلى أنّها سكينة خارقة للعادة ليست لها أسباب ومقدّمات ظاهرة، وإنّما حصلت بمحض تقدير الله وتكوينه أُنُفاً كرامةً لنبيه وإجابة لندائه الناس، ولذلك قدّم ذكر الرسول قبل ذكر المؤمنين، وإعادة حرف (على) بعد حرف العطف: تنبيه على تجديد تعليق الفعل بالمجرور الثاني للإيماء إلى التفاوت بين السكينتين: فسكينة الرسول عليه الصلاة والسلام سكينة اطمئنان على المسلمين الذين معه وثقة بالنصر، وسكينة المؤمنين سكينة ثبات وشجاعة بعد الجزع والخوف»[2] فدلَّ بإنزال السكينة على انفعال نفسي وراحة فيها وزال ما كان يراودها من مشاعر الخوف والفزع، وقد كان ذلك بعد هزيمة غير متوقعة فسكنت القلوب واطمأنت.

كذلك تلاحظ أن الاستعارة تنقل المتلقي إلى أجواء الضيق وشدة الحال وسوء المنقلب وذلك في قوله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، فالضيق هنا ليس بمعناه الحقيقي، والسياق يعبر عنه بقرينة تدل على السعة والرحبة فيها إنما كان ذلك تصوراً مجازياً وتمثيلاً «لحال من

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: مادة (سكن).

(٢) التحرير والتنوير: ١٠/١٥٨.

لا يستطيع الخلاص من شدّة بسبب اختلال قوة تفكيره، بحال من هو في مكان ضَيِّق من الأرض يريد أن يخرج منه فلا يستطيع تجاوزه ولا الانتقال منه»[1]، وهو هنا يصف من خلاله حال المسلمين عند اشتداد البأس وشدَّة اضطراب النفس في الذود عن أنفسهم وقلة حيلهم فكأنَّهم يرون الأرض ضيقة، في صورة نفسية بحتة يُكنّى بها عن منتهى الضعف وفقدان القدرة في تدبير الأمور، فيفهم من وجود (الباء) و(ما) المصدرية، وجود السعة في الأرض وامتناع حصول الضيق، لكنكم وليتم فراراً مدبرين لشعوركم وانقباض أنفسكم من شدّة الحال الحاصلة وصعوبة الموقف، فالضيق هو معنى نفسي بحت وليس له في الحقيقة أصل، وهذا أمر خاص عند من تنزل به الحوادث والكروب فيتحسس باستلاب قوته وتبدد تدبيره وتقديره، لشدة ما يعانيه أو يقع فيه من النوازل والحوادث ذات البعد النفسي على الشخصيات، فالصورة «شبهت ما حل بهم من الكرب والهزيمة والضيق النفسي بضيق الأرض على سعتها على سبيل الاستعارة»[2].

إنَّ السياق التصويري في هذا المشهد يبرز الحالة الشعورية المضطربة من الداخل، فتُظهرهُ الصورة البصرية الماثلة في رؤية الحشود الكبيرة من أعداد المقاتلين قد ولدت هذا الانفعال النفسي (الخاطئ) المتمثل بالإعجاب بالكثرة العدية والاعتقاد أنَّها الكفيلة في تحقيق النصر على الأعداء، وهذا الشعور في ضوء القرآن الكريم شعور منكر مرفوض، فالنصر بيد الله وحده، فبيَّن لهم ﷻ ظلالهم وسوء اعتقادهم ليعودوا إلى السلوك الصحيح، وجعل الأمور وعواقبها

---

(١) التحرير والتنوير: ١٠/١٥٧.

(٢) صفوة التفاسير: ١/٤٩٤.

بيده ﷻ، فالسياق يلتقط صور الأحداث ويعرضها، ويجعل للمتلقي فجوة يربط من خلالها الأحداث ببعضها ويجعلها تفسر بعضها بعضا، وتربط الأسباب بمسبباتها، ابتدأ من حلول الضيق في النفس والإستشعار بالاختناق في شدة الموقف ثم الفرار من أرض المعركة، ثم لجعل مرَّد هذا الحدث موازيا لحالة الإعجاب بالنفس وفسحة الشعور بالتفاخر وجلب النصر المحتوم بتلك الحشود الكثيرة، فالسياق يجعل من المشهد صوراً متقابلة، فتقابل حالة الإعجاب بحالة الفرار وشعور الفسحة بشعور الضيق، ثم ما أن تأتي حالة الرشاد والتنبه من الغفلة المتمثلة بالرجوع لله تعالى، تأتي الصورة المجازية التي تصور نزول السكينة والطمأنينة بنصر الله تعالى، جاءت لتزيل شعور الخوف وشعور الإعجاب بالنفس، وكأنَّهم بنزول السكينة يتلامسونها لمساً حسيّاً، وفي ذلك إشارة إلى شدة القرب والتلاصق، زيادة على المدد الإلهي بإنزال جنوده المقاتلة مع المؤمنين، فتبرز القدرة الإلهية في سرعة تقلب المواقف وتغيير الحال، ثم إبراز درس عقدي مهم في الهداية والتعامل مع الأحداث والنوازل.

وقريب من هذه الصورة في الحدث، في أنَّها تنطلق من حيث انتهت الأولى.

☒ سياق تصوير استعارة الصبر للثبات والإقدام:

نقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن

فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩-٢٥١].

نجد أنَّ المؤمنين من قوم طالوت هنا ربطوا النصر بالله تعالى وتقديره، و لم يجعلوا لكلمات العدد والعدة أي مكانة في الإسماع، لذلك كان شعارهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، فهذه الفئة القليلة كانت واثقة بنصر الله مستيقنة بوعده، ومنه تستمد قواها وعزيمتها، صابرة عليه مستمسكة به ثقة وثباتا، فلم تتزلزل نفوسهم و لم تخور أفئدتهم مع ضعفها وقلتها.

إن مجيئ السياق بكلمة ﴿أَفْرِغْ﴾ في التصوير تعبر عن شعور نفسي، وشدة الحاجة للصبر والعزيمة في داخلة النفوس لحفظ التوازن والثبات، ومجيئها في سياق الدعاء يأتي طلباً لمنع حصول الاضطرابات النفسية التي تزعزع الصفوف المقاتلة وتحول مسار المعركة، فالمواقف النفسية في هذه الأحوال لها وقعها وخصوصيتها في التسبب بتحقيق النصر من عدمه.

ويلاحظ أنَّ التعبير يستند إلى قوّة البيان الإستعاري وفاعليته في إنتاج الدلالة النفسية في السياق التصويري، فيبرز حاجة النفس إلى الصبر ويجعلها منه كحاجة الظامئ للماء البارد فيثير فيه الطمأنينة والهدوء لتحقيق الرّاحة

النفسيّة التي ينالها من منح هبة الصبر الجميل، ولعلَّ من دقة التعبير أن يجاء بهذه الكلمة وعدل بها عن النزول أو الصب؛ «لأنّ الإفراغ بطبيعة سعة الشيء وكثرته وانصبابه وسعته»[1]، فكأنّهم قالوا: اسقنا صبراً وأمطرنا صبرا، فالموقف ناسب اللفظ وحقق الدلالة، «فهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضاً من الله يفرغه عليهم فيغمرهم، وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة واحتمالاً للهول والمشقة»، وعلى إثر الصبر في النفوس واستقراره في الداخل يأتي ثبات الإقدام في الخارج عن شدة البأس في الميدان، فتثبت فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد أبداً.

تعدُّ هذه الاستعارة واجهة مهمة في الإعجاز التعبيري والتوظيف الدقيق في وحدات البناء التركيبي في المشاهد القرآنية، والذي تفرّد به التعبير القرآني في دقة نظمه وسعة دلالته؛ فأنت تلاحظ أنَّ التركيب الذي جسَّد الانفعال النفسي والشعور بالحاجة للصبر عبَّر الاستعارة جعلت التعبير «يتجاوز الإمداد لهؤلاء المؤمنين ونصرهم على عدوهم إلى معنى آخر هو السّكينة والطمأنينة على نفوسهم بلين ورفق، جزاءً لإيمانهم الصّادق وصبرهم على تحقيق النصر»[2]، زيادة على ذلك إنَّ التعبير يربط ما هو في الداخل ويجعله سببا في تحقيق ما هو في الخارج، فقوله: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ استعارة أيضاً، وهي هنا يعبَّر بها عن عدم الفرار والخوف في الشدّة والمأزق تشبيهاً بحركة (زلق الأقدام)؛ ولذلك قدّم حركة (الإفراغ) على هذه الحركة؛ لأنّ سكونيته تسبّبت في سكونيّة الأقدام، فهما حركتان ترتبط الأولى بسكونيّة الثانية، وفي ذلك إشارةٌ

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٢٠.

(٢) الاستعارة في القرآن الكريم (رسالة ماجستير): ٢٥٠.

«إلى أنّ الأقدام لا تثبت في ساحة القتال إلاّ إذا سبقها ثبات القلوب، والجمع بينهما في نسقٍ واحد إيحاءً بأنّ النصر لا يكتب لأحد إلاّ إذا تمكّن من الجمع بين الثباتين: ثبات في النفس، وثبات في البدن»[1]، وهذا من دقَّة التعبير وشمولية البيان القرآني المعجز.

☒ سياق تصوير استعارة الأفئدة للحب والميل:

وقد جسَّد القصص القرآني نماذج وأمثلة كثيرة تبرز الحالة النفسية وتثبتها في السياق التصوري، من ذلك دعاء سيدنا إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

يكاد يتلمس المتلقي في هذه الدعوة ما يجيش في نفسه من نوبات الحرمان ومشاعر الفراق وصعوبتهما، حين يترك الزوجة والوليد في أرض حديث النزول بها ثم يذهب إلى أرض ليس له بموطن، ولمدة غير معلومة الآجل، زيادة على ذلك أنَّه تركهم بأرض لا نبت فيها وماء ولا موطئ قدم، إنّما: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾.

وقد ضمِّن الدعاء الالتفات إلى النفس والأحوال التي تعتريها عند الفراق فطلب من ربه أن يتكفل بما يملأ عليهم شعور الوحشة والوحدة في تلك الأرض التي خلت من البشر فقال: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، والأفئدة: جمع فؤاد والمراد هنا: هو القلب، عبَّر به عن جميع البدن؛ لأنَّه

---

(١) جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني: ١١٤.

أشرف عضو فيه، وفي ذلك مسايرة لما في السياق الذي يعبّر عن طلب توجيه قلوب الناس إليهم للسكون معهم وجلب الأنس إليهم لا توجيهها إلى البيت، ولو كان هذا مراداً لقال تهوي إليه، والمعنى في قوله تعالى: ﴿تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾، أي: تترع إليهم؛ وقيل تسرع وتميل وتَحِنُ إليهم لزيارة بيتك لا لذواتهم وأعيانهم. وفي هذا بيان أن حنين الناس إليهم إنَّما هو لطلب حج البيت لا لأعيانهم، يقال هوى نحوه إذا مال وهوت الناقة تهوي هوياً فهي هاوية إذا عدت عدواً شديداً كأنَّها تهوي في بئر، ويحتمل أن يكون المعنى تجيء إليهم أو تسرع إليهم وقيل تحن وتطير وتشتاق إليهم، وأصله أن يتعدى باللام وإنَّما تعدى بإلى لأنَّه ضمن معنى تميل. تميل قلوبهم إلى هذا الموضع، وقيل تريدهم، وقيل تنحط إليهم وتنحدر وتنزل، وهذا قول أهل اللغة والمعاني[1]، وقولنا: هَوِيَ يَهْوِي هَوِيّاً، إذا سقط من علو إلى أسفلٍ، هذا هو الأصل، لكن السياق يوظف التعبير المجازي المستند إلى الاستعارة لتضمين المعاني التي يحتملها سياق التصوير، فـ﴿تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ تحمل معاني الإرادة والميل والحب فتميل إليهم، أي: تهواهم حبا وشوقا، وتهوي إليهم مسرعة، وهوي إليهم كالسيل منحدرا من علو ومن وكالطير يحط من عل ويترل وتهوي كالحجر من رأس الجبل إذا انحدر وانصب[2].

إذن فالاستعارة ﴿تَهْوِيٓ﴾ تحمل دلات تجسد شعور نفسي وتعبر عنه، فهي لا تشير لمجرد القصد والزيارة فحسب، إنّما السير إليهم بشوقٍ وحبّ وحنين، والحركة فيها تخلق ذلك التوالد الصوري الذي جعل من هذه

(١) فتح البيان: ١٢٥/٧.

(٢) التفسير الكبير: ١٠٤/١٩.

الاستعارة استعارات تتفاعل مع السياق التصويري والحالة المُضِّمنة لتلك الأحوال، لإنتاج دلالة هذه الصّورة، فتجعل الناس طيوراً تُسرع نحوهم من البلاد الشاسعة، فتميل إليهم حناناً وشوقاً ورغبةً[1]، حتى وكأنّ الأفئدة هي من تسرع لا الأجساد «ولو قال: تحن إليهم لم يكن فيه من الفائدة ما في قوله: (تهوي) ؛ لأنّ الحنين قد يوصف به من هو في مكانه»[2]، وهذه الدِّقة في التعبير الاستعاري تحقّق هدفاً نفسياً عاطفياً وذلك: «بتأنيس مكانتهم بتردد الزائرين وقضاء حوائجهم منهم... ومحبة الناس إياهم يجعل معها محبة البلد وتكرار زيارته، وذلك سببٌ لاستئناسهم به ورغبتهم في إقامة شعائره، فيؤل إلى الدعوة إلى الدين»[3].

☒ سياق تصوير استعارة السكوت والغضب:

ويشار، أن بعض مسالك التصويرات في التعبير القرآني تعقد صلات بين النفس الإنسانية والموجودات الأخرى سواء أكانت جامدة أم معنوية، من ذلك تصوير حالة الغضب -وهو انفعال واضطراب في النفس- وجعله شخصية حيَّة تتحرك وتندفع ثم تهدأ وتسكن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فسكوت الغضب استعارة، وفيها بيان للحالة النفسية الحاصة في الوقف الشعوري، وهي تعبر عن الحالة النفس وثورانها في موقف سابق ثم نبرزها في حالة الطمأنينة والسكن بعد ذهاب الغضب

---

(١) ينظر: مدارك التنزيل: ٢٨٦/٤ .

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٨٤.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٤٢/١٣.

وتلاشيه، والسياق «يشبه ثَوَرانُ الغضب في نفس موسى المنشئ خواطر العقوبة لأخيه ولقومه، وإلقاء الألواح حتى انكسرت، بكلام شخصُ يغريه بذلك»[1]، وكأنَّ شخصا يسيطر على موسى فتثير فيه معاني الهيجان والإثارة وتحثه على الغضب، وبعدها يكف عنه فتخمد حالة الغضب عنده وتسكن نفسه ويزول الاضطراب، وذلك مُتَأتّ من قوله: (سكت) فهي التي أسهمت في إثارة في الذهن هذه المعاني النفسية، «والتعبير القرآني يشخص الغضب، فكأنما هو حيّ، وكأنَّما هو مسلط على موسى، يدفعه ويحركه، حتى إذا سكت عنه، وتركه لشأنه، عاد موسى إلى نفسه، فأخذ الألواح التي كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه»[2]، ولو عبّر بغير كلمة السكوت كأن يقول: (سكن) لم تؤدِّ هذه الوظائف في التعبير، يقول ابن عاشور: «والسكوت مستعار لذهاب الغضب عنه، شُبّه ثَوَرانُ الغضب في نفس موسى المنشئ خواطر العقوبة لأخيه ولقومه، وإلقاء الألواح حتى انكسرت، بكلام شخصُ يغريه بذلك، وحسّن هذا التشبيه أن الغضبان يجيش في نفسه حديث للنفس يدفعه إلى أفعال يطفئ بها ثَوران غضبه، فإذا سكن غضبه وهدَأت نفْسه كان ذلك بمنزلة سكوت المغري، فلذلك أطلق عليه السكوت، وهذا يستلزم تشبيه الغضب بالناطق المغري على طريقة المكنية، فاجتمع استعارتان، أو هو استعارة تمثيلية مكنية؛ لأنَّه لم تذكر الهيئة المشبهُ بها ورُمزَ إليها بذكر شيء من رَوادفها وهو السكوت، وفي هذا ما يؤيد أن إلقاء الألواح كان أثر للغضب»[3].

---

(١) المصدر نفسه: ١٢٢/٩.

(٢) في ظلال القرآن: مج٣/ج١٦/١٣٧٦.

(٣) التحرير والتنوير: ١٢٢/٩.

فالسياق يصور الحالة النفسية المتولدة بفعل السكوت الغضب، فالتعبير يرسم حالة الهدوء والسكنية ورجوع النفس واستنادها إلى حالة الاستقرار فترى موسى يأخذ الالواح التي هي هدى ورحمة له ولقومه، فبها انشراح النفوس وفيها الخشية وطرق الرجاء والاستقامة التي تزيل الشقاء والعناء، وهذا يبعث في النفس مشاعر الراحة والأنس والسرور.

ويذكر أنَّ في هذا السياق إحالة لحدث سابق وهو الذي في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠-١٥١].

وهذا السياق يصور الحالة النفسية التي مرَّ بها موسى عندما رجع إلى قومه ووجدهم يعبدون العجل، فقد ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه مما ألحقه من فرط الدهشة وشدة الغضب والضجر حميَّة لدين الله تعالى، وهذا الحدث وتلك الحركة تصورانه «وكأن في نفسه حديدا شديد الغضب، فإلقاء الألواح من يده بمعنى: رميها إلى الأرض، إظهار لمدى الغضب الذي استولى على نفسه، كما يفعل المرء حين يفور دمه من شدة الغضب، فإنَّه يلقي ما بيديه»[1]، فشعور الغضب دفعه لفعل ذلك بعدما جاشت نفسه بما هو حاصل ومشاهد عيانينا، وهذا الطابع الإنساني متوقع حين يشاهد المرء تلاشي ما قدمه من

(١) البلاغة القرآنية في الإشارة والحركة الجسمية: ١٠٧.

جهد وعناية ورعاية، ولاسيما أنَّ الأمر له علاقة بالبعد العقدي والإيماني فأخذ أبعاداً أكثر أهمية ثم نجده بعد زوال الغضب قابلا رد هارون الذي قدَّم له بعبارات هي الصق بالنفس وأكثر ترددا وإثارة لعواطف الإخوة يقول تعالى: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه: ٩٤]، فذكر له رابطة الأمومة تجسيداً لشعور الحب والحنان.

إذن نلاحظ معاً استقرار النفس هنا وسيرها بالأمر بشكل طبيعي هنا، أما التعبير بسكوت الغضب قد أخرج المعنى «وكأنَّ الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا وألقي الألواح، وجرّ برأس أخيك إليك، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء، ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذي طبع سليم وذوق صحيح إلاّ لذلك، ولأنَّه من قبيل شعب البلاغة، وإلاّ فما لقراءة معاوية بن قرة: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾، اتجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة، وطرفاً من تلك الروعة»[1] إذ الوصف بالسكوت أغز معنى وأكثر تجسيداً للأثر النفسي والموقف الشعوري عند موسى.

يمثل المشي دلالة تعريفية بالقصدية التي تشتمل على من يقوم بالمشي، فالسرعة في المشي والإبطاء... الخ، تُعبِّر عن مكنونات نفسية تسيطر على الوضع النفسي في الشخص، والمشي هو «الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة»[2]، ولكن طبيعة المشي وكيفية المشية تختلف من وضع إلى وضع آخر، إذ هي مرتبطة بما يحصل من الانفعالات وخصوصية الحال القائمة.

---

(١) الكشاف: ٢/١٥٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن: مادة (مشى).

☒ سياق تصوير استعارة مشية المرأة الحييَّة:

في قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥] ؛ فهذه المشية تُعبر عن شعور نفسي وانفعال داخلي يتوافق مع الحال التي تجسدت في خصوصية هذه الفتاة، فقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ يريد به معان أخرى تحيل السياق إلى معاني العِفَّة والطُهر والتربية الحسنة، وأيضا يعرف بالهيبة التي تفرضها الفتاة على من الخارج على من يقابلها.

يعرف الحياء بأنَّه: «انقباض النفس عن القبائح وتركها لذلك يقال: حَيِيَ فهو حَيٌ، واستحيا فهو مستحٍ»[1]، ومنه قول النبي ﷺ: «إنّ ربّكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردّها صفراً»[2]، غير أنّ حياء الله فعل المحاسن وترك القبائح من غير انقباض النفس؛ لأنّ الله لا يحيطه وصف فهو مترّه عن مثل هذا، ولكي يتضح الوصف الشمولي في السياق للإشارة إلى الدلالة النفسية فإنَّ التعبير جاء بالوصف عبر المصدر، ليرينا الحالة ماثلة على تمام معنى الحياء وكماله زيادة على التنكير الذي أعطى للصورة دلالة التفخيم والتعظيم، ثم اسند إليه الحرف (على) الدالة على الاستعلاء، فهو يعرف بأنَّ الحياء متمكن منها ونزل منها مترلا واسعا فكأنَّه طريق ماثل تحتها، لذا فالسياق يكشف عن الشعور النفسي للفتاة وهي تكلم رجلا لا تعرفه، ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنَّها كانت «واضعة يدها على

---

(١) المصدر نفسه: مادة (حي).

(٢) صحيح ابن حبّان: باب الأدعية، ٥١٢/٩، ح (٤١٩٧).

وجهها مستترة»[1]، فقد أثقل عليها ذلك وشقَّ عليها الحديث بالمباشرة.

كما يرسم السياق الجو النفسي وحالة الاستقرار بعد الحوار والمجالسة، فقد سكنت فرائسه وزال الاضطراب، فقوله: ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ يجسد تلك الدلالة ويرسم جوّ الطمأنينة والسكون لدى (موسى).

☒ سياق تصوير استعارة التصعُّر للخد والقصد في المشي:

وعلى العكس من هذه الدلالة نجد القرآن يعرِّف بالسلوكيات التي ترتبط بالحالة الشعورية في بعض الشخصيات، فيسعى لتهذيب النفس ويبغض حالة التعالي والترفع على الخلق، وذلك من خلال النهي عن تصعير الخد والمشي مرحا وخيلاء، قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]. والتصعير: «ميل في العنق وانقلاب في الوجه إلى أحد الشقين، والتصعير إمالة الخدّ عن النظر إلى الناس تهاوناً من كبر وعظمة كأنّه مُعرِض»[2]، وكلّ صعب يُقال له: مُصَعِّر[3]، قال الرازي: «لما أمره أَمره بأَن يَكون كاملا في نَفسه مكمِّلاً لغيره وكان يخشَى بعدهما من أمرين:

أحدهما: التكبر على الغير بسبب كونه مكملاً له.

والثاني: التبختر في النَّفس بسبب كونه كاملاً في نفسه فقال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ تكبراً، وَلا تَمْشِ فِي الأرْضِ مرحاً تبختراً، إن الله لا يحبّ

---

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢١٩/١٨.

(٢) العين: مادة (صعر)، وينظر: لسان العرب: مادة (صعر).

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن، مادة (صعر).

كل مختال، يعني من يكون به خيلاء وهو الذي يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر فخور، يعني مَن يكون مفتخرا بنفسه وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه»[1]، فالتعبير السياقي يُهذِّب الطباع ويقوّم السلوك بالحفاظ على القيم الإنسانية والمشاعر النبيلة، وبالمرة يحط من شأن المتكبر المتخايل الذي يزدري الخلق، لأنَّ الصورة منتزعة من حالة أخرى ترمز إلى المرض المنفر فيمقت صاحبه، فالأصل في الصعر أنَّه «داء يصيب البعير يلوي منه عنقه»[2]، فالمتخايل الذي يرى الناس كبره، إنَّما هو في الأصل ممقوت مذموم، فهذا الوصف يشعر بالمرض النفسي حين يعمد الشخص إلى هذا الوضع من الحركة الجسمانية، فالدلالة في السياق ترمي إلى التوجيه بالتهذيب والنهي عن معاني التعالي، فالمعنى: «لا تولّهم شِقّ وجهك كفعل المتكبر، وأقبل على الناس بوجهك من غير كبرٍ ولا إعجاب»[3].

ويلاحظ أنَّ مستويات التعبير عن دلالة النفس جاء بمضامين تعبيرية متجسدة في: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي: متكبراً ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي: متبختراً، فهما مستويان يتوجهان للكشف عما في النفس فيوجهها نحو سعي وحالة تبعث معاني التواضع وعدم الإشعار بالتعالي، من خلال: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾، فلا تسرف في التبختر والتثني على الخلق؛ «لأنّ المشية القاصدة إلى هدف لا تتلكأ ولا تتخايل ولا تتكبر، إنّما تمشي لقصدها في بساطة وانطلاق»[4]، وهي مِشية يحبّها الخلق وترتاح لها النفوس.

---

(١) التفسير الكبير: ١٢٢/٢٥.

(٢) الكشاف: ٥٠٤/٣.

(٣) البحر المحيط: ١٨٣/٧.

(٤) في ظلال القرآن: مج٥/ج٢١/٢٧٩٠.

إذن اقترنت هنا دلالة المشي مع (تصعير الخد) يحاول الشخص من خلالها الكشف عن مكنوناته النفسية وانفعالاته الداخلية في التخايل والتعالي فيصور للآخرين إثبات لنفسه ما ليس فيها، ولعلّنا ندرك روعة الجمال وروعة التعبير للإشارة للدلالة المرجوة، فيحقق التأثير البالغ في النفس ويرسّخ الصُّورة في الأذهان؛ وليكون المشهد أقرب إلى النفس في للتنفير عن هذا السلوك الخطير.

ونشير هنا: إنَّ هذا المجال يُمكِّن تقدم الحركات في الجسد هيئة مصورة بصريا وتحيل الصورة إلى أبعاد نفسية مترابطة مع بعضها في التدليل للمضمون النفسي، وان كانت التعبيرات التي جسدتها مختلفة في العرض السياقي لصورها، وربما جاز لنا أن نجمع بين حركة (تصعير الخدّ) وحركة (المشي مرحاً) مع حركة (ثني العطف)، في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [الحج: ٨-٩]، إذ المعنى الذي انطلق منه السياق هو البعد الذي تحيل إليه هذه الحركات هو البعد النفسي، وهذه المتواليات الصورية، إنَّما هي تعبير عن النفس وتقلباتها تجاه ما في الخارج، يقول الزمخشري: «وثني العطف عبارةٌ عن الكبر والخيلاء كتصعير الخدّ ولي الجيد»[(١)]، ومصاعرة الخدّ هي «هيئة المحتقِر المستخِف في غالب الأحوال»[(٢)]، فكلاهما يُكنّى بهما عن الإعراض عن الحقّ تكبراً وازدراء؛ لأنّ «المستثقل لسماع الشيء الذي لا يلائمه في الأكثر يصرف بصره دونه ويثني عنقه عنه»[(٣)]، وما ذلك إلا للأثر النفسي الذي

(١) الكشاف: ١٧٩/٥.

(٢) التحرير والتنوير: ١٦٦/٢١.

(٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٣٢٨، وينظر: البحر المحيط: ٣٢٩/٦.

أرادت تُعبّر عنه هذه الشخصية لِعلّة النفار عنه.

☒ سياق استعارة المنافق للمنهزم الخائف المطارد:

تبرز سياقات التصوير القرآني عبر حركات الشخصيات معان تحيلها إلى التعبير عما يجول في النفس من خوالج ومشاعر، من ذلك السياقات التي صورت المنافقين وأظهرت حقائهم عبر صور ساخرة ترسم زيف نفوسهم وبطلان دعواهم، نكتفي هنا بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـَٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ٥٧ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ٥٨ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٥-٥٩].

يأتي التصوير النفسي هنا مستندا إلى التعبير الاستعاري الذي يكنى به عن الحالة الساخرة تبعا لأفعالهم، مصاحبا لبيان الحالة الكاملة والوضع النفسي بشكل عام، ولذا جاء الخطاب التحذيري منهم في مفتتح الصورة بـــ(لا) الناهية تجسد الكلمات (مَلۡجَـَٔا، مَغَٰرَٰتٍ، مُدَّخَلٗا) الحالة النفسية في السياق، والمَلجأ: مكان اللجأ، وهو الإيواء والاعتصام، والمغارات: جمع مغارة، وهي الغار المتّسع الذي يستطيع الإنسان الولوج فيه، ولذلك اشتقّ لها المفعل: الدالّ على مكان الفعل، من غَارَ الشيء إذا دخل في الأرض، والمُدَّخَل مُفْتَعَل اسم

مكان للإدّخال الذي هو افتعال من الدخول، ومعنى ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾، أي: لانصرفوا إلى أحد المذكورات وأصل ولّى أعرض، ولّما كان الإعراض يقتضي جهتين: جهة يُنصرف عنها، وجهة يُنصرف إليها، فكانت تعديته تعديته بأحد الحرفين تعيّن المراد، والجموح: حقيقته النفور، واستعمل هنا تمثيلاً للسرعة مع الخوف، والمعنى: أنهم لخوفهم من الخروج إلى الغزو لو وجدوا مكاناً ممّا يختفي فيه المختفي فلا يشعر به الناس لقصدوه مسرعين خشية أن يعزم عليهم الخروج إلى الغزو[1].

إنَّ هذه الكلمات الثلاث: (مَلْجَئًا، مَغَـٰرَٰتٍ، مُدَّخَلًا)، مترادفة المعنى، ولكنها في الحقيقة ليست كذلك، بل كلّ منها تصوّر في شكلٍ معينٍ للملاذ الذي يبحث عنه المنهزم والخائف، بدءا من الشكل الطبيعي المألوف وهو الملجأ العادي من دار أو غرفة أو جماعة من الناس، إلى الشكل الذي لا يألفه ويرضيه إلا من اشتد خوفه، وهو المغارة في باطن الأرض أو بطن الجبل، إلى الشكل الذي هو أبعد في القبول والإلف من كليهما وهو: المدّخل، أي: المكان الضيق الذي لا يستطيع هذا الخائف أن يقتحمه إلا بجهد ولا يكاد أن يستقر فيه إلا تضاؤلا والتصاقا، وانظر كيف تؤدي كلمة ﴿مُدَّخَلًا﴾ هذه الصورة وتجسمها في الحسّ بوزنها وجرسها المعبر[2].

إذن فالصورة الاستعارية في ﴿يَجْمَحُونَ﴾، ترسم لهم مشهداً ساخراً، يدلّ على شدة جبنهم، فهم جبناء، ونفوسهم واهنة ضعيفة، تجسم ذلك الصورة الحسية في حركة جموحهم كالفرس مسرعين إلى جحور وأنفاق في

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٠/٢٣١.

(٢) من روائع القرآن: ١٧٤.

الأرض محاولين الاندساس في مغارات ليختبئوا فيها من شدة خوفهم وفزعهم، فالاستعارة تأتي «لتصوير تلك الحالة النفسية المذعورة الخائفة التي تحس بالمطاردة، تملك عليهم كل حواسهم فيسرعون إسراعاً مخبأ يحتمون به من حصن أو مغارة أو نفق، فهم يتسابقون لا إلى خير وطاعة، إنما يتسابقون من فزعهم الداخلي ورعبهم لالتماس المهرب والاختفاء»[1]، فالتعبير بالاستعارة يريد به وصف الخوالج النفسية وحالة إعراضهم عن دعوة الحق، فهم دائماً: «يُسرعون، بحيث لا يردُّهم شيء من الفرس الجَموحِ وهو الذي لا يثنيه اللجام وفيه إشعارٌ بكمال عتوهم وطغيانهم وقرئ يجمزون بمعنى يجمحون ويشتدون ومنه الجمازة»[2]، فيظهر كذب شجاعتهم زيادة على بث حالة الهزء بهم من خلال جموحهم كالمطارد الخائف.

☒ استعارة تصوير حركة الأصابع للاستكبار والعِناد:

تجسد التصويرات القرآنية الحالة النفسية بموضوعات عدة وتكشف عنها من خلال الوحدات التصويرية سواء أكانت بالمعالم المادية أم التخييلية، فهي بذلك تُعبِّر عن الحالات الشعوريّة والحسيّة لدى الأفراد، مع أنّ «الكثير من طرائق الوصف القرآني تقوم على عنصر الخيال»[3]، الذي يجعل من الصورة القرآنية صوراً معبرة عن الموقف والشعور النفسي من الداخل، ففي سلوك المستكبرين من قوم (نوح) نجده يكشف عن معانٍ داخلية تجوب الحس والذهن معاً فتعبر عن خوالج النفس تجاه الدعوة والداعي، مفصحة عن هُويّة

---

(١) الكناية في القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه): ٢١١.

(٢) إرشاد العقل السليم: ٤/٧٥.

(٣) الوصف في القرآن الكريم: ١٣١.

الانتماء ومعلنةً عن تحديد الموقف، قال تعالى على لسان نوح: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]، وكان هذا الحدث بعد أن قطع معهم شوطاً طويلاً من الزمن في الدعوة والنصح، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥-٦]، فلم يجد ذلك معهم نفعاً، إذ تمكن الكفر فيهم وأخذ الشيطان منهم نصيباً وافراً؛ يظهر (نوح) في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بمظهر النّاصح المصرّ على استجابة قومه للدعوة بتكرارها عليهم مراتٍ عدّة، فوجود (كلّ) تضيف للسياق دلالة تجدد الدعوة وتكرارها بفترات زمنية كثيرة.

يظهر نوح بمظهر الرجل الناصح الحريص على استجابة قومه لدعوته فيقابلوه بالامتناع والرفض، ودعوته هي الدعوة للتوبة والرجوع لله تعالى، لأنّ تحقيق التوبة سبب في تحقيق المغفرة وتحصيلها[1]، والمعنى: «كلما دعوتهم إلى عبادتك وتقواك وطاعتي فيما أمرتهم به، واللام في قوله: ﴿لِتَغْفِرَ﴾ لام التعليل أي: دعوتهم بدعوة التوحيد، فهو سبب المغفرة، فالدعوة إليه معللة بالغفران»[2]، أي: ليكون ما قبلها سببٌ وواسطة في تحقيق ما بعدها؛ لتمكّن المظروف من الظرف، فدلَّ على استحالة إيمانهم وإتباع دعوته.

يقدّم المشهد لوحة فنية وحالة نفسية بحتة مستندة على عنصر الحركة في أربعة مستويات:

---

(١) ينظر: التفسير الكبير: ١٣٦/٣٠.

(٢) التحرير والتنوير: ١٩٥/٢٩.

الأول: جعلوا أصابعهم في آذانهم.

الثاني: استغشوا ثيابهم.

الثالث: أصرّوا.

الرابع: استكبروا استكباراً.

وهذه المستويات الحركية اشتملت على معانٍ وجدانية ونفسية مؤثرة في السلوك الخارجي الذي شكّل المعنى العام في المشهد، فكان معنى مؤتلفاً من الحركة الجسدية (خارجياً) ومن الحركة النفسية (داخلياً)، وإنّ الأول صار سبباً في تحقيق الثاني، والعكس كذلك، فكلاهما مرتبطٌ بالآخر بحيث لو امتنع أحدهما كان سبباً في عدم تحصيل وامتناعه.

يمثل قوله تعالى: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ سلوكاً حركياً خارجياً يوحي بعدم الإصغاء والاستماع لصوت الداعي «معبّرين بذلك عن عجزهم عن عدم التكيف مع الموقف ومعالجته بالنحو السليم»[1]؛ لانغلاق النفس على عدم الإدراك لديهم وتعطيل الحواس فلم تعد تستجيب أو حتى مجرد الإصغاء لحديثه وخطابه، والآذان لا تَسَعْ الأصابع للدخول فيها، ولكنّه لّما أراد المبالغة في التعبير عن صدّهم وإعراضهم عن الاستماع قال: (أصابع) و لم يقل: (إصبع)؛ ليوجّهنا إلى معنى الامتناع والاستحالة في عملية إدخالها، والمراد هو ليس إدخال (الأنامل) قطعاً، وإنّما قد يريد الإصبع الواحد من مجموعة الأصابع؛ لأنّ هؤلاء أرادوا منع تسرّب صوت الداعي للآذان، مع نية الإصرار والعناد المبيتة مسبقا، فالحركة ترمز لهذا الأُنموذج دلالة إتباع الأهواء

(١) قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً: ٢/٤٤٤.

والأوهام في اتّخاذ آلهة من دون الله تعالى؛ لتدلّ في النهاية أنّهم لا يسلكون المسالك المعهودة، في أنّهم يطلبون المنفعة فيما لا ينفع في عدم الاستجابة وإصرارهم على الإعراض والبقاء في الضلال؛ كما ترتبط هذه الحركة بمعانٍ أُخر مُكنّى عنها في النفس المكابرة، فهي تشي «بسوء أدبهم وتصرفهم مع نبي الله واستهزائهم به»[1]، فالحركة تحمل بُعداً جمالياً يتجاوز الوصف الحركي المباشر، بعداً حسيّاً لحالٍ نفسيٍ شعوريٍ يمنح المشهد حركة حيّة ظاهرة العَيان، حركة الضَلال والهلاك المسبق.

ويكشف المشهد عن وضعٍ حركيٍ آخر يأخذ الانطباع نفسه، يتمثّل بتعطيل وسائل الإدراك والاستجابة الحسية، ففي هذه المرة قد ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾؛ لإخفاء القدرة من عملية الإبصار وتعطيلها عنه، إعلاناً منهم «بتعطيل أبصارهم في المعنى الشامل للداعي والدعوة والتفكير فيما يدعوهم إليه، فهم بمنزلة من منع بصره بوصفه وسيلة للإدراك والمعرفة»[2]، فهم لّما لم يستجيبوا للحقّ حجبوا أبصارهم عن صورته؛ لينتقل معنى الحركة للإطار النفسي الذي يلائمها، متمثلاً في مكابرتهم وإعراضهم لما يدعوهم إليه؛ وأصل الاستغشاء: غشاء، وهو الغطاء، وغشَّيتُ الشيءَ تَغَشيتُهُ: إذا غطيته، والنار غاشية؛ لأنّها تغطّي وجوه الكافرين، والعِمامة غاشية؛ لأنّها تغطّي الرأس، واستغشى بثيابه: تغطّى بها كي لا يرى ولا يسمع؛ استظهاراً للعداوة[3]، وقد زِيدَ البناء على صيغة (الافتعال) للتعبير عن دلالة المبالغة والاتّساع في المعنى

(١) الكناية في القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه): ١٤١.

(٢) المصدر نفسه: ١٤١.

(٣) ينظر: لسان العرب، مادة (غشا).

العام للحركتين، فهم «سدّوا مسامعهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه، وتغطّوا بثيابهم حتى لا ينظروا إليه؛ كراهةً وبغضاً من سماع النصح ورؤية الناصح»[1]، مصرِّين مستكبرين، ثمّ قال ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ ليجسَّد الجانب النفسي في الوجدان الذي حافظ على استدامة عملية وضع الأصابع في الإذن والاستغشاء بالثياب، بمعنى أنّهم «أقاموا على المعصية»[2]، معصية نوح لمّا دعاهم إليه حين قال لهم: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١١٠ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٠-١١١]؛ متحججين بحجج واهية.

يلاحظ أن السياق يبرز هؤلاء القوم بصورة المعاند وهو مستكبر رافض وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، والإصرار في الأصل هو «التعقد في الذَنْب والتشدد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه، وأصله من الصرِّ، أي: الشدّ، والصُرّة: ما تعقد فيه الدراهم»[3]، وفيه تشبيه مستعار من إصرار (الحمار) على الشيء إذا أصرَّ ذَنَبَهُ وأُذنيه مع قرينة الذمّ والتحقير؛ لملازمتهم فعل العصيان، فكان ذلك التشبيه أقرب لبيان الحال، فهم كالحمار الذي عُطِّل سمعُهُ وبصرُهُ فلا يعقلون[4]، ودلالة التعبير بالمصدر دلالة شمولية؛ لبيان الوضع النفسي وردّ الفعل تجاه أيّ مبادرة للدعوة في قوله: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾، فتعاظموا ولم يأبهوا لأيّ تذكرة، ففيها افتعالٌ ومبالغةٌ في الامتناع والعزم على عدم الإيمان.

---

(١) البحر المحيط: ٣٣٢/٨.

(٢) تفسير غريب القرآن: ٤٢٧.

(٣) المفردات في غريب القرآن: مادة (صرَّ).

(٤) ينظر: روح المعاني: ٧٢/٢٩.

إنّ توالي هذه الحركات يعدّ دليلاً على تحقيق العزم في النفس وتوحّد القرار على ردّ الفعل بفعلٍ مضادّ دون أيّ تفكير أو مراجعة، «وهنا تكمن البلاغة والعمق في التأثير، فكلّ سامع بهذا الوصف يستقر في نفسه ما يحمل من دلالة ويفهم الحال الذي كان عليه هؤلاء بصورةٍ أوضح وأبلغ من الوصف بكلمة الصدّ أو الرفض»[1]؛ ويبدو أن غياب دلالة الاستجابة وتجاوز القوم إلى العداوة يوضّح تحولهم إلى أعداء في معرِض الدعوة، فالتقابل بالخلاف هنا نشأ على مستوى السياق اللفظي، وكذلك على المستوى الذهني والنفسي؛ ليشكل محوراً أساسياً يعني أنّ الجدل والخصومة يرافق الطّبيعة النفسية، لتوصف الحركات في المشهد بأنّها ذات بعدين (داخلي، خارجي) تظهر النفس متحرّكة إلى جانب أعضاء الجسد، ما يعني البنية السياقية تحدِث مقابلةً بين «حالة وجدانية (فكرة) ومظهر خارجي في الطبيعة الآنية التي يحياها»[2]، مع التسليم بعلاقة التلازم بينهما، والإشارة المهمّة هنا إلى دور الوصف القرآني في إبراز الأحوال النفسية، ما يؤكد أنّ النفس مصدرٌ حركي مهم يعرِّف بالسلوك الإنساني من الخارج، ويغذّي اللغة الإشارية بالدلالات المتنوّعة، وهذا يدفعنا في النهاية للقول: بأنّ الحركات الخارجية إنّما هي معانٍ نفسيّة، وكذلك هو الحال في وصف الحركة (لغوياً)؛ لأنّ كلّ تركيبة لغوية منطوقة إنّما هي ما كان يدور في باطن النفس من انفعالات ونشاطات وجدانية بل «إنّ عدداً كبيراً من التراكيب النحوية الدائرة وُلِّد بفعل الشعور»[3]، لأنه واسطة قوية ترفد الملكة التعبيرية بعوالم واسعة الامداء.

---

(١) لغة الجسد في القرآن الكريم (رسالة ماجستير): ٧٦.

(٢) الوصف في القرآن الكريم: ١٨٤.

(٣) علم الأسلوب: ٢٠.

ومثله الأثر النفسي الذي تعبر عنه الجماعة في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ [هود: ٥]، والثني: هو الطَيّ، وأصل اشتقاقه من اسم الاثنين، يقال: ثنّاه إذا جعله ثانيا وثنَّيت صدري إذا عطفته وطويته، فثني الصدور إمالتها تشبيهاً بالطَيّ، وإمالة الجنب من أعلى الرأس حتى الورك مع عبسٍ الوجه، ومعنى ذلك الطأطأة[1]، ولا شكّ في أنّ للدافع النفسي أثراً كبيراً في إحداثها جميعا، فتدلّ على والإعراض والاحتقار تكبراً[2].

☒ سياق التصوير للهمز واللمز:

وحين أنكر القرآن الكريم بعض طرائق التعامل الإنساني التي يمكن فيها الأذى وتهييج مشاعر الازدراء والتقليل من مكانة الكيان البشري والانتقاص من شأنه ذاد القران الكريم عن ذلك، وأفرد له سورة كاملة منكرة وموجهة في سياقها نحو المسالك السليمة للاستشعار بالقيم الإنسانية وحفظ مقامات البشرية حضوراً وغياباً أحياء وأمواتاً، فقال ﷻ: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ [الهمزة: ١-٩]، فسياق السورة الكريمة يحدث مقابلة بين حالين مختلفين تجسد الأثر النفسي، فمن من صورة السخرية والتعالي التي يظهرها من أغناه الله ووسع عليه، فيجعل غيره بنظرته

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن، مادة (ثنى).

(٢) ينظر: التعبير القرآني والدلالة النفسية: ٧٤.

وحركات الجسد المؤذية زيادة على الأذية اللسانية مواجهة وغياباً، المعبر عنها بـــ(الهمز واللمز) وهذه الصورة زيادة على أنها مكروهة نهى القرآن الكريم من إبداءها للخلق سخرية وهزء، إشعاراً وتوجيهاً بالتواضع الذي يحفظ للإنسان القيم الأخلاقية واتزان السلوك.

إن وصف النار بالحطمة يعبر عن شدة الأخذ شدة العذاب، مأخوذ من الحطم وهو «كسر الشيء مثل الهشم ونحوه، ثمّ استعمل لكلّ كسر متناه، وحَطَمْتُهُ فانحطم حَطْماً، وسائقٌ حُطَمٌ: يحطم الإبل لفرط سوقه»[1]، ومنه قوله تعالى على لسان نملة سليمان: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، فالتسمية للدلالة على جعلهم محطمين في النفس وفي البدن خواة، لا حول ولا قوة، والمعنى الحسي في هذا العذاب يراد منه أن ينتقل إلى المعنى النفسي الحاصل في دواخلهم حين يتركون منبوذين مهانين فيها، فالصورة مناسبة لحال الذي كان دأبه أن يهزأ بالناس ويلمزهم في أنفسهم ساخرا متفاخرا بماله ظنا منه أن يكون سبيلاً في خلوده، فالكبرياء والتعالي والتفرد الذي وقر في نفوسهم وجعلهم يزدرون الخلق، جعلهم في صورة المهمل المتروك في الحطمة يوم القيامة، فتحطم قواه وتحط من كبرياءه يزيدها الإضافة لله تعالى في شدة التحطيم والهلاك زيادة على معاني الخوف والهلع والرهبة من نار الله، ومعنى إيصادها عليهم: «ملازمة العذاب واليأسُ من الإفلات منه كحال المساجين الذين أغلق عليهم باب السجن، تمثيلَ تقريب لشدة العذاب بما هو متعارف في أحوال الناس، وحالُ عذاب جهنم أشد مما يبلغه تصور

(١) المفردات في غريب القرآن: مادة (حطم).

العقول المعتاد»[1]، فالمعنى يشبه النار بغرفة يوضع بها هؤلاء ثم تغلق عليهم أبوابها لدلالة الإحكام وملازمتهم العذاب فلا يمكنهم الانفلات منها، يزيدها الوجه الأخر من هذا التشبيه هو أنهم حين يوضعون فيها مهملين لا يُسأل عنهم أو يعلم بهم أحد، هكذا موثقون كالبهائم.

ولو تأملنا في سياق قوله تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ لوجدنا إن اللفظة فيه تحيل إلى دلالات التحقير والترك والإهمال، والأصل في النبذ «إلقاء الشيء وطرحه لقلّة الاعتداد به، ولذلك يقال: نَبَذْتُهُ نَبْذَ النَّعْل الخَلِق»[2]، وقال ابن عاشور: «وأكثر استعماله في إلقاء ما يكره»[3]، فالصورة تعبر عن حركة الإلقاء بهم ورميهم بعشوائية بغير عناية، مع سهولة الأخذ والتناول مع دلالة الضياع والتلاشي، والحركة بدورها تبرز معاني القوة المطلقة مع سهولة التناول، وشدة الإحكام ودقته، وسرعة الرمي وإصابته، كجذب أحدنا حجارة من الأرض ورميها في قعر البحر، وهذا من شأنه إبراز الشعور النفسي لهؤلاء ويزيد من شدة الألم، ألم الوحدة والوحشة والترك والإهمال زيادة على ما يلاقي من ألم العذاب في الحطمة، وأنت تلاحظ «في جرس الألفاظ تشديد: (**عَدَّدَهُ، كَلا، لَيُنْبَذَنَّ، تَطَّلِعُ، مُمَدَّدَةٍ**)، وفي معاني العبارات توكيد بشتى أساليب التوكيد: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾، فهذا الإجمال والإبهام، ثم سؤال الاستهوال، ثم الإجابة والبيان، كلها من أساليب التوكيد والتضخيم، وفي التعبير تهديد ﴿وَيۡلٌ﴾، ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾، ﴿ٱلۡحُطَمَةِ﴾،

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/٥٤١.

(٢) المفردات في غريب القرآن: مادة (نبذ).

(٣) التحرير والتنوير: ٣٠/٥٤٠.

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾، وفي ذلك كله لون من التناسق التصويري والشعوري يتفق مع فعلة الهمزة اللمزة»[1]، فهو يشير إلى التناسب بين الدلالة وبين البناء الأسلوبي في السياق التصويري تناسب لما هو معروض من العذاب، وفي ذلك معنى يحيل إلى من كان دأبه الهزء واللمز للخلق، وكذلك وعيد وتهديد من هذه الصفة الممقوتة، وتحذير من الوقوع فيها.

ويستمر العرض ليرسم للحطمة صورة شاخصة ماثلة للعين، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ ليصور حالهم وهم فيها، أي: «في حال كونهم في عَمَد، أي: موثوقين في عمد كما يوثق المسجون المغلظ عليه من رجليه في فَلْقَة ذاتِ ثَقب يدخل في رجله أو في عنقه كالقرام»[2]، والسياق يرسمها شخصا ساعيا عالما، أي: «تعلم مقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب، وذلك بما اسبقاه اللَّهُ تعالى من الأمارة الدالة عليه، ويقال: اطَّلَعَ فلان عَلَى كذا: أي: علمه»[3]، ففي لفظ الاطلاع إشارة إلى الجري والإعمال حتى تصل الأفئدة، فهي إنما «تدخل في أجوافه حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم، ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد، وَلَا أشد تألما منه بأدنى أذى يماسه، فكيف إِذَا اطلعت عليه نار جهنم واستوت عليه، ثم إنَّ الفؤاد مع استيلاء النار عليه لا يحترق؛ إِذْ لَوِ احترق لمات، وهذا هو المراد، ومعنى الاطِّلاعِ هُوَ أَنَّ النار تنزل من اللحم إلى

---

(١) في ظلال القرآن: مج٦/ج٣٠/٣٩٧٣.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/٥٤١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/١٨٥.

الفؤاد»[1]، فيبرز شدة العذاب والكرب الذي يترل بهم، وليت الأمر يقف على هذا فهي مؤصدة وهذا اللفظ يعمق الألم النفسي والوجع الذي ترتب على تركهم معزولين منفردين، والمعنى: أنه يؤكد يأسهم من الخروج وتيقنهم يحبس الأبد، فتؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب العمد، استيثاقاً في استيثاق»[2]، إذن السياق التصوري يبرز حالة نفسية زيادة على الحسية المتمثلة بالشعور بعذاب النار، غير أن السياق يعطي مساحة كبيرة للأثر النفسي في شقين، الشق الأول حيث الازدراء والهمز واللمز في الدنيا وهي معان نفسية وأثرها في متلقيها أيضا حين يشعره المقابل بسخرية وانتقاص المقام، يقابله الحال الذي سيؤول إليه الهامز اللامز يوم القيامة حين يترك منبوذا مهانا في نار موقدة مؤصدة، فيجتمع عليه زيادة على عذاب النار عذاب الوحشة والوحدة، ما يثير التهكم والسخرية بمن حاله هكذا.

☒ سياق التصوير لحالة الذهول النفسي ليوم القيامة:

تتكشف الإشارات النفسية في سياقات التصوير القرآني من خلال ورود تراكيب تعبيرية تتضمنها تلك السياقات، فتكون إحالة دلالية لمضامين نفسية ومضمرات انفعالية لما هو حاصل في الخارج، من ذلك ما تضمنته سورة القيامة من سؤال الذهول الذي يصدر ممن يشاهد أهوال القيامة وتداعيتها في النفس البشرية، يقول تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ٥-١٣].

---

(١) التفسير الكبير: ٢٨٦/٣٢.

(٢) الكشاف: ٣٠٨/٤.

إن من أشراط الساعة وما يرافق وقوعها حصول أحداث غير مألوفة بالبنسبة للبشر، لا سيما وإنه يشاهد مواقف لا يمكن وقوعها، لعهده بها أنها جارية في نسقها الثابت الذي لا يتبدل أو يتغير، فهو يشاهد القمر قد خسف نوره ثم جمع مع الشمس وطمس الإثنان في حالة غير معتادة ومن دون سابقة، ثم قبلها يجد أن عنصر الرؤية قد تحول وتلاشى، إقرأ معي: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟.

إنَّ المعنى في قوله تعالى: ﴿بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ يريد به: أنَّه تحيَّر فزعا؛ وأصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره به، وقرىء: (برق) من البريق، أي: لمع من شدة شخوصه ومكثه، وقرىء (بلق) وذلك إذا انفتح الشيئ وانفرج، يقال: بلق الباب وأبلقته وبلقته، إي: إذا فتحته وقوله ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾، أي: إذا ذهب ضوؤه وتلاشى، أو ذهب هو بنفسه، وقرىء: (وخُسِفَ) على البناء للمفعول، وبعد ذلك ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، حيث يطلعهما الله تعالى من المغرب، أو وجمعا في ذهاب الضوء على التفريق، فقد ذكر: أنهما يجمعان أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران في النار ثم يقذفان في البحر، فيكون نار الله الكبرى[1].

ومما يلاحظ هنا، أن السياق يشير إلى الحالة النفسية من خلال البنية الاستفهامية ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟، وهذا السؤال يأتي تعبيراً عن فرط الحيرة والذهول حين يضعف نور العين ولا يستقر اتجاه البصر و لم تتكشف لديه أسباب الرؤية البصرية المتمثلة بمصدري النور: (الشمس والقمر)، زيادة

(١) الكشاف: ٤/٦٦١.

على غياب الواسطة البصرية المتمثلة بحصول حالة برق البصر دلالة على تلاشيه في ذلك الحين، فتضمحل الأمكنة وتغيب عنه مدارك الوعي ومعرفة ما يحيط به من أحداث نتيجة الخوف والفزع الواقع في دواخل النفوس، «ويبدو في سؤاله الارتباك والفزع، وكأنما ينظر في كل اتجاه، فإذا هو مسدود دونه، مأخوذ عليه، ولا ملجأ ولا وقاية، ولا مفر من قهر الله وأخذه، والرجعة إليه، والمستقر عنده ولا مستقر غيره»[1]، فتبدد النور التصق بعنصر إدراكه، وحين تعطلت وسائل الإدراك تعطلت الحياة ولم يكن لوجوده فيها أية قيمة حين ذهبت قيم موجوداتها وتحصيل فوائدها.

كما يلاحظ أيضاً أن تكرر في هذا السياق لفظ (القمر)، فذكر مرة لوحده ومرة مع الشمس فقال تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، ومرد ذلك «لأنَّ الأول عبارة عن بياض العين بدليل قوله: ﴿بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾، وفيه قول ثان وهو قول الجمهور إنَّهما بمعنى واحد وجاز تكراره؛ لأنَّه أخبر عنه بغير الخبر الأول، وقيل الثاني وقع موقع الكناية كقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، فصرح تعظيماً وتفخيماً وتيمناً، قلت ويحتمل أن يقال أراد بالأول الشمس قياساً على القمرين؛ ولهذا ذكر فقال وجمع الشمس والقمر أي: جمع القمران فإنَّ التثنية أخت العطف وهي دقيقة»[2]، ولقد ذكر الفراء في ذلك أنه يراد بالجمع «ذهاب ضوئها أيضاً فلا ضوء لهذا ولا لهذه. فمعناه: جمع بَيْنَهُما، فِي ذهاب الضوء كما تَقُولُ: هَذَا يوم يستوي فِيهِ الأعمى والبصير

(١) في ظلال القرآن: مج٦/ج٢٩/٣٧٦٩.

(٢) أسرار التكرار في القرآن: ٢١١.

أي: يكونان فيه أعميين جميعاً، وَيُقَال: جمعاً كالثورين العقيرين فِي النار، وإنما قَالَ: جُمِع ولم يقل: جمعت لهذا لأنَّ المعنى: جمع بَيْنَهُما فهذا وجه، وإن شئت جعلتهما جميعاً فِي مذهب ثورين، فكأنك قلت: جمِع النوران، جُمِع الضياءان، وهو قول الكسائي: وقد كان قوم قولون: إنَّما ذكرنا فعل الشمس؛ لأنَّها لا تنفرد بجُمع حتَّى يشركَها غيرها، فلما شاركها مذكر كَانَ القول فيهما جُمِعا، ولم يجر جمعتا، فقيل لهم: كيف تقولون الشمس جُمِعَ والقمر؟، فقالوا: جُمِعت، ورجعوا عنْ ذَلِكَ القول»[1]، فالمعنى جمعا بذهاب نورهما، وهذا على وجه الحقيقة؛ إذ يجمعان ويكوران ثم يرمى بهم في البحر فيكون، فيكون نار الله الكبرى»[2].

فالمراد بأسلوبية التكرار أن دلالة المغايرة في الوصف التعبيري وإرادة الاتساع فيها فخسْف القمر أمر يختلف عن جمعه مع الشمس، فخسفه معناه: ذهاب ضوئه وإظلامه[3]، أما الجمع بينهما فهو تعبير عن دلالة القدرة والقوة الالهية وتصوير المشيئة والتصرف في الملك والوجود في جمع الاثنين وتوابعهما واندثارهما ومن ثم طمس معالهما وإسناد هذا الحدث ناسب وجود ابتداء التعبير بـــ(إذا) التي تحيل السياق إلى زمن ثم تحقيق وقوع الحدث وتأكيده، وحينها لا ملجأ ولا مكان إلا إلى الله تعالى المتصرف بملكه الذي إلية المرجع والمستقر للحساب والجزاء، وما كان سؤال الخوف وبروق الصبر إلا دلائل على حيرة النفوس واضطرابها من شدت الأمر وتمهيدا لحصول القيامة.

---

(١) معاني القرآن (الفراء): ٣/٢١٠-٢٠٩.

(٢) جامع البيان٢٤: ٥٧.

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن: مادة (خسف).

☒ سياق التصوير في سورة الزلزلة:

ويشار، إنَّ المشاهد التي صورت الأحوال والأحداث الحاصلة حين قيام الساعة حافلة بالصور التي تجسد الحالة النفسية تجاه ما يحدث من أمور خارقة خارج القوة البشرية، وهذه المشاهد تعمل على إبراز الانفعال والاضطراب الحاصل بالنفس البشرية حال تلقي التحولات الحاصلة لما هو معهود من مكونات الطبيعة في الكون من ذلك الحالة التي تصورها سورة الزلزلة، يقول تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:١-٨] وزلزلة الأرض، أي: «حركت تحريكاً عنيفاً متداركاً متكرراً، وزلزالها: أي: الزلزال المخصوص بها الذي تقتضيه بحسب المشيئة الإلهية للبنية على الحكمة البالغة، وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده زلزال، فكان ما سواه ليس زلزالا بالنسبة إليه، أو زلزالها العجيب الذي لا يقادر قدره، فالإضافة على الوجهين للعهد، ويجوز أن يراد الاستغراق، لأنَّ زلزالاً مصدر مضاف فيعم، أي: زلزالها كله وهو استغراق عرفي قصد به المبالغة وهو مراد من قال: أي زلزالها الداخل في حيز الإمكان أو عني بذلك العهد أيضاً»[1]، فالصور المتسلسلة تترابط مع بعضها لتخرج لنا المشهد كاملا، والإنسان حين يدرك هذا التحول غير المعهود يقول: ﴿مَا لَهَا﴾ نتيجة الرهبة والدهشة الصادرة تجاه ما يقع أمامه

(١) روح المعاني: ٢٠٨/٣٠.

من أحداث خارج مستويات التوقع والإدراك، يقول سيد قطب «وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوء، الذي يرى ما لم يعهد، ويواجه ما لا يدرك، ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت، ما لها، ما الذي يزلزلها هكذا ويرجها رجا، مالها، وكأنَّه يتمايل على ظهرها ويترنَّح معها ويحاول أن يمسك بأي شيء يسنده ويثبته، وكل ما حوله يمور موراً شديداً وكان يصاب منها بالهلع والذعر، والهلاك والدمار»[1]، فالسؤال هنا يجسم الحالة النفسية وما يصاحبها من أحوال الفزع والرهبة ويصور شعور الاضطراب في كوامن النفس فتذهب النفس به كل مذهب، فيقول ذلك من شدة الأمر الفظيع.

☒ سياق تصوير حال الكافرين بالجراد المنتشر والفراش المبثوث:

كذلك هو الحال حين تصور حالة (الخوف) التي تنتاب الكافرين حين البعث في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦-٨].

إنَّ حركة (الجراد المنتشر) توجهنا لاستحضار أُناسٍ جبناء حين يفرّون من الحرب فَزِعين خائفين يتفرقون بهلع وذلّ على غير هدى[2] نتيجة الذعر وشدة التوترات النفسية، «مشهد الجراد المعهود يساعد على تصور المنظر المعروض»[3]، وهذه الحالة ترتبط بصوت الداعي، حين يخرج الناس بفعلها

---

(١) في ظلال القرآن: ج٣٠/ مج٦/٣٩٥٥.

(٢) ينظر: التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة: ١١١.

(٣) مشاهد القيامة في القرآن: ٨٢.

للحساب، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١-٤٢]، فالصورة تبرز شعور الخوف الحاصل في نفوس هؤلاء، ما يعلنا أما حقيقة تبرزها التشبيهات القرآنية، إذ هي «لم تقف عند مجرد تسجيل وجوه الشبه المادية بين الأشياء بل تجاوزتها إلى المماثلة النفسية، وتعمقتها حتى أخفت عليها حياة شاخصة وحركة متجددة، فانقلب المعنى الذهني إلى هيئة أو حركة، وتجسمت الحالة النفسية في لوحة أو مشهد»[1]، وهذا بلا شكّ يكشف عن البعد الحقيقي للشعور النفسي لهؤلاء المفزوعين[2]؛ ويُفهم من قوله: ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أنّ الدعوة خُصّت لمبهم، إذ اكتفى بذكر صفة (اليوم)، وفي ذلك إشارة للتعظيم والتهويل من شأن المدعو إليه، فجُعلت النفوس تنكره لهوله الذي لم ترَ مثله من قبل[3].

ويذكر، أن هذه الصورة ترتبط بعلاقة تواشجية مع صورة (**الْفَراشِ الْمَبْثُوثِ**) في قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ١-١١] في تجسيد الدلالة التي تكمل

(١) الصورة الأدبية في القرآن الكريم: ٤٥.

(٢) ينظر: التعبير القرآني والدلالة النفسية: ٢٩٨.

(٣) ينظر: صفوة التفاسير: ٢٧٩/٣.

أحداهما الأخرى في نسق البنية التركيبية وفي رسم معاني الرهبة والحيرة، فهم: «كحيرة الفراش الذي يتهافت على الهلاك، وهو لا يملك لنفسه وجهة ولا يعرف له هدفاً»[1]، والمبثوث «المهيج بعد ركونه وخفائه»[2]، وقال الزجاج: «والفراش ما تراه كصغار البق يتهافت في النار، وشبّه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر والفراش المبثوث؛ لأنّهم إذا بُعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد يموج بعضه في بعض»[3]، والسياق يخرج الصُّورة بهيئة متشابكة تحاكي غوغاء الجراد حين يركب بعضه بعضاً عند نفرته إذ هيُج[4]، وبهذا تتّخذ الصّورة مكانها في النفس حين تجعلهم في أدنى مستويات الضعف والانهيار النفسي.

☒ سياق التصوير لأحوال ذهول المرضعة:

وتطالعنا مشاهد البعث يوم القيامة بمظاهر تتجسد فيها الأهوال فتنتقل آثارها إلى النفس فتتسب في الذهول وإثارة الانفعال فتتجاوب مع ما يحدث في الخارج من أحوال مرهوبة، كما في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١-٢].

---

(١) في ظلال القرآن: مج٦/ج٢٧/٣٩٦٠.

(٢) المفردات في غريب القرآن: مادة (بث).

(٣) معاني القرآن وإعرابه(الزجاج): ٥/٣٥٥.

(٤) معاني القرآن (الفراء): ٣/٢٨٦.

يبدأ السياق المشهدي بالخطاب الذي حمل بين طياته توجيها دعويا وتحذيرا هاما من زلزلة الساعة، فإن شأنها عظيم، ثم يبين أن أثاره حاصلة في مستويات ثلاثة: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾، أنه «مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة، بينما الخيال يتملاه، والهول الشاخص يذهله، فلا يكاد يبلغ أقصاه، وهو هول حي لا يقاس بالحجم والضخامة، ولكن يقاس بوقعه في النفوس الآدمية: في المرضعات الذاهلات عما أرضعن وما تذهل المرضعة عن طفلها وفي فمه ثديها إلا للهول الذي لا يدع -بقية من وعي- والحوامل الملقيات حملهن، وبالناس سكارى وما هم بسكارى»[1].

إن هذه التمظهرات حاصلة ساعة الزلزلة والنفس وراء ذلك، فما وقع انتقلت معانيه إليها فرهبت وخافت فغاب الوعي وسكرت الخلائق وتناست المراضع وسقطت الأجنة من بطون أمهاتها، وأنت تتصور أناس ذاهلة مترنحة، حركات لا إرادية، خوف وقلق شديد، وربما تفوهوا بكلمات تظهر معاني الذهول التام، «فالجمل التركيبية في هذه الآية واضحة المعنى ولكن فيها إبهاماً تتطلع إلى كشفه النفس، وذلك من حيث تحديد الزمن الذي ستقوم فيه الساعة أي يوم القيامة، ولا شك أنه أمر مبهم ستره الله حتى عن علم الأنبياء والمقرّبين إليه»[2].

ولو تأملت الوصف بالذهول لوجدت الإشارة إلى الحالة النفسية

---

(١) في ظلال القرآن: مج٤/ج١٧/ ٢٤٠٨.

(٢) من روائع القرآن: ٩٢.

المضطربة، فإن الذهول تعبير يكنّى به عن مظاهر شدة الحالة الحاضرة ومن شأنه: «نسيان ما من شأنه أن لا يُنسى لوجود مقتضى تذكره؛ إما لأنَّه حاضر أو لأنَّ علمه جديد، وإنَّما ينسى لشاغل عظيم عنه، فذكر لفظ الذهول هنا دون النسيان؛ لأنَّه أدل على شدّة التشاغل... وقد حصل من هذه الكناية دلالة على جميع لوازم شدّة الهول وليس يلزم في الكناية أن يصرح بجميع اللوازم؛ لأنَّ دلالة الكناية عقليّة وليست لفظية»[1]، وهو هنا يجسد حال الذهول والغفلة للمرضعة عن مرضعها: «أي تغفل عن دهشة كُلُّ مُرْضِعَةٍ وهي التي ترضع بالفعل مباشرة للإرضاع، وإنَّما يقال لها المرضع من غيرها إذا أريد معنى أعم وهو أنَّه من شأنها الإرضاع بالقوة أو بالفعل كحائض وطالق، وفي هذا تصوير لهول الزلزلة كأنَّه بلغ مبلغاً لو ألقمت المرضعة الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الخوف»[2]، وذكر الزمخشري ملتفتاً إلى دقة التعبير فقال: «فإن قلت: لم قيل: مُرْضِعَةٍ (دون مرضع) قلت: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي، والمرضع: التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به فقيل: ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ ليدل على أنَّ ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ عن إرضاعها، أو عن الذي أرضعته وهو الطفل»[3]، ففي هذا التعبير جمالية أغنت السياق وقربته إلى متلقيه، ففي (مرضعة) إشارة تظهر حالة التعطف

---

(١) التحرير والتنوير: ١٨٩/١٧.

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٦٣/٥.

(٣) الكشاف: ١٤٣/٣.

والمقاربة والملاصقة، فإذا هي تطرحه وتترعه دهشة ورهبة من الزلزلة وما يصاحبها من أحوال مروعة للنفس مما ناسب التعبير شدة الهول فيمارس فاعلية الانتقال مباشرة إلى الإيحاء والتعبير النفسي الذي يجسده سياق الحال، والأصل في الزلزلة: مأخوذ من شدة التحريك والزلل عن الثبات استعارة هنا ليماثل الحدث المعروض، قال الرضي: «الأصل: أزلّ الله قدمه. بمعنى أزالها عن ثباتها واستقامتها، وأسرع تعثرها وتهافتها. ثم ضوعف ذلك، فقيل: زلزل الله قدمه. كما قيل: دكّه الله، ودكدكه، فالمراد بزلزلة الساعة -والله أعلم- رجفان القلوب من خوف وزلات الأقدام من روعة موقعها، ويشهد بذلك قوله سبحانه وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى يريد تعالى من شدة الخوف والوجل، والذهول والوهل»[1].

وإذا انتقلنا إلى الحدث الآخر: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾، سنجد الصورة تخاطب العين وكأنها تشاهد عن قرب حالة الذهول، والصورة تنفي السكر عنهم، فجاء مشبها إياهم بالسكران، إشارة إلى الانهيار الواقع في الشعور والحس، والمعنى فيه: «وتراهم سكارى على التشبيه، وما هم بسكارى على التحقيق ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم وردّهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه، وقيل: وتراهم سكارى من الخوف، وما هم بسكارى من الشراب، فإن قلت: لم قيل أوّلاً: ترون، ثم قيل: ترى، على الإفراد، قلت: لأنّ الرؤية أوّلاً علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً رائين لها، وهي معلقة أخيراً بكون الناس على حال السكر، فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائياً

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٢٣٦.

لسائرهم»[1]، فالوصف بالسكر ثم نفيه عنهم في الحقيقة يعطي انطباعاً يقرب صورة النفس من الداخل وهي تضطرب وتتخبط كحال السكران الذاهل عن البصيرة، فلا وعي ولا عقل ولا تمييز، ونقل الرازي في الوصف بالسكارى قول ابن عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ في ذلك، فقال: هم «سُكَارَى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب، فإن قلت لِمَ قِيل أولاً (تَرَوْنَ) ثم قيل (تَرَى) على الإفراد قلنا؛ لأنَّ الرؤية أولا علقت بالزلزلة، فَجُعل الناس جميعاً رائين لها، وهي معلقة آخِرا بكون الناس على حال من السكر، فلا بد وأن يُجعل كُلُ واحد رائياً لسائرهم»[2]، حتى نجم عن ذلك الخوف والذهول أن تضع الحامل حملها على غير تمام من شدة ذلك الحال وعسر المقام الذي صاحب هوله أحداثا تنكرها النفس وجعلت تتفجع من أحداثها و تهلع، فالوضع هنا يسببه اضطراب نفسي والشعور بكرب شديد، والمعنى فيه: «أَنَّهَا تسْقط ولدها لتمام أَو لغير تمام من هول ذلك اليوم... فتذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وألقت الحوامل ما في بطونها لغير تمام»[3]، فزعا وخوفا من الزلزلة التي أرعبت وأرهبت، فبينت قدرة خالق عظيم ﷻ.

☒ سياق تصوير مشهد الفرار والرعب للإنسان يوم القيامة:

وفي مشهد آخر تقترب أهواله من هذا المشهد، حيث القيامة حين فتفزع من هولها الخلائق وتضطرب من شدته النفوس، وذلك في قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾

(١) الكشاف: ١٤٤/٣.

(٢) التفسير الكبير: ٢٠١/٢٣.

(٣) التفسير الكبير: ٢٠١/٢٣.

لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٣-٤٢].

فالمشهد يعرض هول القيامة وساعة حلولها، فتنتقل شدهما إلى النفوس فتترعج وتفزع بالفرار خوفا وذعرا، يقول سيد قطب: «والهول في هذا المشهد هول نفسي بحت، يفزع النفس ويفصلها عن محيطها، ويستبد بها استبدادا، فلكل نفسه وشأنه، ولديه الكفاية من الهم الخاص به، الذي لا يدع له فضلة من وعي أو جهد»(١).

إن التعبير بالصاخة تعبير قصدي فيه دلالة محكمة وفيه دقة تلازم الحدث المعروض أمام متلقيه، والصاخةُ «الداهيةُ العظيمةُ التي يصخُّ لها الخلائقُ أي يصيخونَ لها من صخَّ لحديثِه إذا أصاخَ له واستمتع وصفتْ بها النفخةُ الثانيةُ؛ لأنَّ الناسَ يصيخُونَ لها، وقيل هي الصيحةُ التي تصخُّ الآذانَ أي تصمَّها لشدة وقعِها وقيلَ هي مأخوذةٌ من صخَّهُ بالحجرِ أي: صكَّهُ»(٢)، والأصل في الصاخة مأخوذ الصخ، وهو شدّة صوت ذي النّطق، يقال: صَخَّ يَصِخُّ صَخّاً فهو صَاخٌّ، وهي عبارة عن القيامة، وقد قلب عنه: أَصَاخَ يُصِيخُ(٣)، فهي التي تصِخُّ الأسماع، أي: تُصِمُّها فلا يسمعُ إلا ما يدعى فيه لإحيائها(٤)، وقد ذكر بعض المفسرين أنَّ الصاخَّة يراد بها صيحة القيامة، أي: النفخة الثانية، مأخوذ الصخ، وأصله في اللغة: الطعن والصك، يقال صخَّ رأسه بالحجر، أي:

---

(١) في ظلال القرآن: مج٦/ ج٣٠/٣٨٣٤.

(٢) إرشاد العقل السليم: ١١٢/٩.

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن: مادة (صخ).

(٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه (الزجاج): ٢٨٧/٥.

شدخه، والغراب يصخ بمنقاره في دبر البعير، أي: يطعن، فالصاخة هي الصاكة بشدة صوتها الأذن من هذا الباب، وتحتمل أن تكون مأخوذة لدلالة الاستماع، كقولنا: صخَّ لحديثه، أي: استمع له[1]، والمعنى أن الناس يصخون للقيامة ويستمعون لها ويلحظون ما يصاحبها من أهوال من باب آخر.

ويأتي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ وصفاً يشرع في «بيان أحوال معادهم أثر بيان مبدأ خلقهم ومعاشهم والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها من فناء النعم عن قريب كما يشعر لفظ المتاع بسرعة زوالها وقرب اضمحلالها وجواب إذا محذوف يدل عليه يوم يفر الخ أي: اشتغل كل أحد بنفسه والصاخة هي الداهية العظيمة التي يصخُّ لها الخلائق أي: يصيخون لها من صخ لحديثه إذا أصاخ واستمتع وصفت بها النفخة الثانية، لأنَّ الناس يصخون لها في قبورهم فاسند الاستماع إلى المسموع مجازاً»[2]، فاللفظ يتحمل وجهتان في الإشارة الدلالة، فهي تسمِع الناس أحداثها، أي: تنقلها لهم، فيستمعون لها مندهشين منذهلين، وكأننا بأناس وقد سلبت الإرادة منهم وغاب عنهم الوعي وجذبهم ما يشاهدون، فهربت نفوسهم إليه وحارت فرائسهم نحوه، والتعبير بـــ(إذا) يزيد سياق الصورة دهشته وحيرة، فيقرب الحالة للمتلقي، ويمهد للحدث القادم، إذ مجيئها كان مفاجأة وبسرعة خاطفة، وهم من دون سابقة علم وتهيئ، ولا هي ممكنة الإدراك والتصور فانزعجت النفس منها واضطربت، ولا يزال المتأمل في هذه الكلمات يجدها ترفد الحس بظلال التعبير حين تقدم الصاخة بصوتها إلى مسامع الخلق فتتجلى آثارها في

(١) ينظر: التفسير الكبير: ٣١/٦١.

(٢) روح البيان: ١٠/٢٦٤.

القلب البشري فيذهل عما دون نفسه.

تمتاز مشاهد القيامة في القرآن الكريم، أنها حين تعرض مشاهد الغيب تهتم بعرض الصورة والأحداث بطريقة تبرز المظاهر والآثار التي تترتب أو تصاحب الصورة وحدثها الغيبي الذي، هو من هنا يحقق الغاية الدينية المتمثلة بخصوصية الدعوة والهداية، من خلال عرض الموضوع وبيان ما يتعلق به وما يصاحبه من مواضيع أخرى ومظاهر تصويرية ومشاهد عيانية.

ومن المظاهر ذات الأثر النفسي التي يبرزها السياق التصويري في المشهد هي حركة الفرار، حركة عشوائية لا قصد ورائها ولا منتهى، إنما حركة تعرف بالتخلي عن كل قريب والانشغال بالنفس وما يعتريها من أهوال خاصة، لنترك الصورة تتكلم: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾.

إنَّ الفرار لا يجسد معنى الانتقال وسرعة التحول وحسب، إنما هو معبر عن حالة خاصة، حالة التخلي والتباعد والانشغال عن أقرب الناس إليه أو من هم أشد القرب منه وشعوريا ومكانيا، «وخص هؤلاء بالذكر؛ لأنَّهم أخص القرابة وأولاهم بالحنو والرأفة، فالفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم وخطب فظيع، وتبعات بينه وبينهم»[1]، فهو لا يجد فيهم نفعا ومقدرة على كشف كربه، مع أنَّ ما يعرض أمامه ويشاهده عن قرب من أحداث لها الأثر النفسي في جعله يتناسى إياهم ولا يعي لهم أي بال، فالأحداث لها خصوصية ووقع جعل لهم بعداً شعورياً ومكانياً، فالأصل في الفرار إنَّما هو لشدة الحال الذي يجعل المرء يستغني بما حاصل عنده عن غيره كما قال ﷻ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، فالاستغناء شعور داخلي وحالة نفسية تبدأ من دواخل

(١) فتح البيان: ٨٨/١٥.

النفس البشرية، فتستغني عن الشيء بشيء آخر، وما جعلها تستغني هنا هو الشعور بالأثر الذي أحدثته الصاخة وأهوالها المتعددة، فأغنها الهول عن كل ما حولها، ففي هذا السياق الوصفي «بيان سبب الفرار والشأن لا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور أي: لكل واحد من المذكورين شغل شاغل وخطب هائل يكفيه في الاهتمام به، أي: الهم الذي حصل له قد ملأ صدره فلم يبق فيه متسع»[1]، والصور مستعارة هنا، فيها تشبيه بالغني والمالك الذي يستغني بملكه عن ما سواه، فالمعنى: إنَّ ذلك «الهَمْ الذي بسبب خاصة نفسه قد ملأ صدره، فلم يبق فيه متسع لِهمٍ آخر، فصارت شبيها بالغني في أنَّه حصل عنده من ذلك المملوك شيئا كثير»[2].

إذن، أهوال الصاخّة ترسم مشهد الفرار وحالة الرعب، والسياق يقرب الحالة عبر حركة الفرار الجماعيّة، وحالة تتقطع من خلالها الروابط الاجتماعية، فهذه الحركة تجسّم الحالة النفسية المضطربة والخائفة والتفكير القاصر على النجاة، وانشغاله بذلك عن أقرب الناس إليه واستغناءه عنه.

ولما ذكر أحوال هذا اليوم، ذكر ما يحصل بعده من أحوال الخلائق فجعلهم إلى صنفين ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾، فدَلَّ بذلك على ما يحصل في الباطن الذي سيعرف بالعاقبة بدلالة الحالة الظاهرة، وقوله: ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ يعني: «بيض مضيئة بالإشراق والاستنارة، ومن أسفر الصبح إذا أشرق واستنار، ضاحكة: لما علمت من سعادتها، مستبشرة، أي: طالبة للبشر وهو تغير البشرة من سرور وموجدة

(١) روح البيان: ١٠ / ٢٦٤.

(٢) التفسير الكبير: ٣١ / ٦٢.

لذلك، وهي بيضاء نيره بما يرى من تبشير الملائكة»[1]، مأخوذ من (السَّفْرُ): وهو كشف الغطاء، ويختصّ ذلك بالأعيان، نحو: سَفَرَ العمامة عن الرّأس، والخمار عن الوجه، وسَفْرُ البيت: كَنْسه بالْمِسْفَر، أي: المكنس، وذلك إزالة السَّفِيرِ عنه، وهو التّراب الذي يكنس منه، والإِسْفارُ يختصّ باللّون، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤]، أي: إذا أشرق وبان لونه فصار متضحاً متهللاً[2]، فيفهم من قوله تعالى: ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾ يعني: «مضيئة قد علمت ما لها من الفوز والنعيم»[3]، ومن دواعي ذلك الفرح والاستبشار، تعبيراً عن شعور الراحة والأنس لما وقع في النفس فاطمأنت بالفوز لما أعده الله تعالى لهم، واستبشارها بما ترى من مشاهد النعيم، «فهذه وجوه مستنيرة منيرة متهللة ضاحكة مستبشرة، راجية في ربها، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها. فهي تنجو من هول الصاخة المذهل لتتهلل وتستنير وتضحك وتستبشر، أو هي قد عرفت مصيرها، وتبين لها مكانها، فتهللت واستبشرت بعد الهول المذهل»[4].

وبالانتقال إلى الصنف الآخر: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾، إنَّ في لفظة ﴿غَبَرَةٞ﴾ اتساع وشمولية، فالغَابِرُ: هو الماكث بعد مضيّ ما هو معه، قال تعالى حكاية عن لوط: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٠-١٧١]، يعني: فيمن طال أعمارهم، فيمن بقي ولم يسر مع لوط، أو: فيمن بقي بعد في العذاب، ومنه: الْغُبْرَةُ: البقيّة في الضّرع من اللّبن،

---

(١) نظم الدرر: ٨ /٣٣٤.

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن: مادة (سفر).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (الزجاج): ٥/٢٨٧.

(٤) في ظلال القرآن: مج٦/ج٣٠/٣٨٣٤.

وجمعه: أَغْبَارٌ، والْغُبَارُ: ما يبقى من التراب المثار، وجعل على بناء الدّخان والعثار ونحوهما من البقايا، وقد غَبَرَ الغُبَارُ، أي: ارتفع، وقيل: يقال للماضي غَابِرٌ، وللباقي غَابِرٌ، فإن يك ذلك صحيحا، فإنَّما قيل للماضي غابر تصوّراً بمضيّ الغُبَارِ عن الأرض، وقيل للباقي غَابِرٌ تصوّراً بتخلّف الغُبَارِ عن الذي يعدو فيخلفه، ومن الغُبَارِ اشتقّ الغَبَرَةُ: وهو ما يعلق بالشيء من الغُبَارِ وما كان على لونه، وداهية غَبْرَاءُ، إما من قولهم: غَبَرَ الشيء: وقع في الْغُبَارِ كأنها تُغَبِّرُ الإنسانَ، أو من الغُبْرِ، أي: البقيّة، والمعنى: داهية باقية لا تنقضي، أو من غَبَرَةِ اللّون، أو من غُبْرَةِ اللّبن فكلّها الدّاهية التي إذا انقضت بقي لها، والغُبَيْرَاءُ: نبت معروف، وثمر على هيئته ولونه، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ كناية عن تغيّر الوجه للغمّ[1]، كقوله تعالى: ﴿بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، وقال الزجاج: «أي: غَبَرَةٌ يعلوها سواد كالدخَانِ، ثم بَينَ مَنْ أَهْل هَذِه الحالِ»[2]، وهي في الأصل ما يطرأ عليها من تغيير وما يعتريها من أحوال فتجعلها كدرة مائلة للسواد، والتعبير بشبه الجملة (عليها) يضفي للصورة دقة وبيانا تحيل إلى ملاصقة الهيئة لها وملازمتها، «بحيث يصير كأنَّه قد علاها غبار، وهي عابسة حذرة وجلة منذعرة، وذلك مما يلحقها من المشقات وكثرة الزحام مع رعب الفؤاد، وتذكر ما هي صائرة إليه من الأنكاد الشداد»[3].

ثم إلى الحدث الأخر وبحركة خاطفة مقصودة مشخصة ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾،

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: مادة (غبر).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (الزجاج): ٥/٢٨٧.

(٣) نظم الدرر: ٨/٣٣٤.

أَي: تدركها عن قرب، كقولك رهقت الجبل إذا لحقته بسرعة، وفيها دلالة التغشية والتتبع، والرهق: عجلة الهلاك، والقترة: سواد الدخان في الأصل، ولا يُرى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، فذلك إشارة لجمعهم الكفر والفجور معاً[1]، والتعبير بالقتر يريد به ظلمة الوجوه واسوادها، إيحاء وتعبير بالهلاك الموعود أو المتوقع لهؤلاء، فقبل أن يكون حسياً كان شعوراً نفسيا بدت آثاره في علامات الوجوه وإشارات بادية فيها، إذ يبدو ما في الوجوه إعلام بالمصير والمال القادم، فالقترة يراد بها «ظلمة كالدخان فلا يرى أوحش منها لاجتماع العبرة والدخان عليها أولئك الذين صنع بهم ذلك من كشف وجوههم وتغيرها»[2]، وفي ذلك تقابل ضدي على ما كانوا فيه في الدنيا من التمتع واللهو والتمادي في الكفر والفجور، فسياق المشهد تصوير لأحوال النفس وتحولاتها الشعورية فمن الإسفار والبشر وإلى الخوف والذعر، ومن الغبرة والقترة إلى البياض والنور، ومظاهر الإستشعار بالنعيم والعذاب، فهي أحوال وتقلبات نفسية تنسجم ومرامي وظائف القرآن الكريم في التحذير والدعوة ترغيباً وترهيباً، وكانت النفس مدخل مهم من مداخل هذا التوجه الواسع سواء في حال العرض الخطاب أو في حالة البيان والتصوير.

ويشار إلى أنَّه هذه الصورة تتعالق مع الصورة في قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١١-١٤]، في بعض أجزائها، إذ هما متقابلتان لتكشف عن فوارق الخلائق وتبرز حقائقهم واضحين للعيان،

(١) التفسير الكبير: ٦٢/٣١.

(٢) بيان المعاني: ٢١٧/١.

كما في هذا المشهد، فكلاهما يجسد الحالة النفسية المضطربة لشدة ما يشاهده من مظاهر الفزع والهول، فالمشهد السابق كان قد جسَّد هيئة الفرار والتخلي، أما هذا المشهد فقد جسَّد مشهد الفداء والتخلص من هو قريب إليه، لشغل كل واحد بنفسه ولا يهمه إلا نجاته وخلاصه مما هو فيه بأي حال ممكن، فهم يشاهدونهم ويبصرونهم لكنهم في حال يغني عنهم وعن القرب منهم فيعرض بل ويود لو يفتديهم بنجاته، وربما قد كان يفتديهم في حياته يوما في الدنيا، قال سيد قطب: «إنَّ لهفته على النجاة لتفقده الشعور بغيره على الإطلاق، فيود لو يفتدي بمن في الأرض جميعاً ثم ينجيه، وهي صورة للهفة الطاغية والفزع المذهل والرغبة الجامحة في الإفلات، صورة مبطنة بالهول، مغمورة بالكرب، موشاة بالفزع، ترتسم من خلال التعبير القرآني الموحى»[1]، ولذا قد أفاد التعبير من توظف الحرف (ثم) وما فيه من إحالة وإيحاء إلى معاني الأبعاد عن تحصيل المراد.

ويلاحظ، أنَّ سياق المشهدين فيه اختلاف نسبي في ترتيب (الأخلاء) وعدم ذكر الأم والأب هنا، ففي (عبس) ابتدأ بالأقرب فالأقرب، ابتدأ بالأخ ثم الأبوان ثم الزوجة والأبناء، و ذكر هنا الابن والزوجة والأخ و لم يذكر أمَّه وأبيه، لأنَّ السياق هنا في المعارج فهو سياق افتداء، ولا ذلك مع مكانة الأب والأم وحال البر بهما يتناسب، بحيث يجعلان فداء من شيء، إنَّما افتدى بالأعز والأغلى ترتيبا، فابتدأ ببنيه فهم الأولى بالمعزة لقربتهم منه، ثم أتبعهم بالأدنى فالأدنى، زيادة على ذلك إنَّ سياق المشهد في (عبس) فيه تهويل وترويع تدركه الحواس جميعها، فكان أكثر فضاعة مما هو في الحدث المعروض

(١) في ظلال القرآن: مج٦/ج٣٠/٣٦٩٧.

في (المعارج) الذي المدرك بالبصر، وربما عن بعد أو عرِض له عرضا، فتنبه له المجرم وأقدم بالافتداء منه نتيجة للترويع الحاصل في نفسه منه، فالهول النفسي في السياق الأول أشد منه في الثاني.

☒ سياق تصوير هول زيغ الأبصار وبلوغ القلوب الحناجر:

وفي مقام الخطاب الإخباري في مشاهد القرآن تبرز حالة النفوس المفزوعة وشدة الكرب عبر حركة الأعضاء الجسدية المتمثلة بالقلوب والأبصار فتصف هيئة الحال وتبيّن أهوال الموقف، فنقرأ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾ [الأحزاب: ٩-١١].

يصف المشهد حال المسلمين عند نزول الكرب يوم (الخندق) حين تجمع الأحزاب لهم من كلّ صوب[1]، والسياق يستعرض الحدث فيرسم حركة الأبصار والقلوب تجاه هذا الموقف المهوّل، والأحزاب يحيطون بالمسلمين من أعلى وأسفل فاضطربت القلوب وزاغت الأبصار تجاه هذا الحدث المهول، و(الزيغ) وهو «الميل عن الاستقامة»[2]، وتكاد ترى الهيئة ماثلة أمام العين، فشعور الخوف الذي انتاب النفوس في الداخل تكشفه أعضاء الجسد في الخارج، فتبرز مداه وتبين ملامحه القلوب الفزعة والأبصار الزائغة والوجوه المتحيرة، فالعيون متحولة إلى الانحراف

---

(١) ينظر: التفسير الصحيح: ١١٥-١١٦.

(٢) المفردات في غريب القرآن: مادة (زيغ).

عن المسار البَصَري، فلا تكاد تبصر شيئاً ولا يمكنها إدراك ما حولها فتميل عما وجهت إليه، فكلما وجهت نحو صوب زاغت إلى صوب آخر من شدّة الرعب وفرط الحيرة ؛ لأنّها «عدلت عن كلّ شيء فلم تلتفت إلاّ إلى عدوّها؛ لشدة الروع» [1]، وكذلك حال القلوب فكأنَّها من شدة الهول صارت إلى الحناجر، والحنجرة هي «رأس الغلصمة، والغلصمة هي منتهى الحلقوم، والحلقوم مجرى الطعام والشراب»[2]، فالسياق يجعل من تحول هذه الأعضاء عن أصولها تعبيرا عن شعور الخوف والهول في النفوس.

إنَّ بلوغ القلوب الحناجر وزيغان الأبصار هي عبارة عن الحركة العضوية في الجسد، والذي يمكن قوله هنا: إنَّ هذه الحركة غير حقيقية كما هي لا إرادية، فقد تنتفخ الرئة عند اشتداد الأمور ونزول الحوادث وتتغير ملامح الوجه استشعارا بالهول والفزع الواقع في النفوس، إنّما جاءت هنا جرياً على التمثيل والتصوير؛ فتعرف بمعاني الفزع والقلق والاضطراب الحاصلة في النفوس مع المبالغة في الوصف، يقول الرازي: «وبلغت القلوب الحناجر: كناية عن غاية الشدة، وذلك لأنَّ القلب عند الغضب يندفع وعند الخوف يجتمع فيتقلص فيلتصق بالحنجرة، وقد يفضي إلى أن يسد مجرى النفس فلا يقدر المرء أن يتنفس فيموت من الخوف»[3]، فالسياق يجري على سياق التمثيل حين يرسم حركة القلوب تتحول عن مقارها وتتجاوزه إلى الحناجر طالبة الخروج، ولم تستطع تجاوزها فتقف عندها فعبرَّت بذلك عن

---

(١) الكشاف: ٥/٥٤.

(٢) الدر المصون: ٩/٩٧، وينظر: لسان العرب، مادة (حنجر).

(٣) التفسير الكبير: ٢٥/١٦٠.

شدة الضيق والحرج وشبهت تلك الحالة بحالة حركة القلب، «وهو تعبير مصوّر لحالة الخوف والكربة والضيق يرسمهما بملامح الوجوه وحركات القلوب»[1]، فكأنّهما من شدّة الموقف تجاوزا مقارّهما طلباً للخروج فشُبّه القلب بقلبٍ مرعوب تجاوز موضعه إلى أعلى فلمّا بلغ الحنجرة لم يتجاوزها؛ لشدّة ضيق المسلك فيها، فالحركتان «عبارة عمّا يجده الهلع ثوران نفسه وتفرّقها شعاعاً، ويجد كأنَّ حشوته وقلبه يصعد علوّاً لينفصل»[2].

إنَّ هذه الصورة تتواشج علائقياً مع صورة أخرى في القرآن الكريم وتتوافق حركياً مع حركة القلب عند حلول الآزفة عند قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ [غافر: ١٨]، والآزفة: القيامة سمّيت كذلك لقرب وقتها؛ لأنّها لا شكّ آتية؛ لدنوها وأزوفها، وكلّ آتٍ قريبٌ[3]، قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧]، يريد بذلك تعبيراً عن اقترب حلول القيامة وحصول أهوالها، وهذا المشهد يصف (القلوب) في شدة الأمر ونزول الأهوال وكأنّها لاصقةٌ بالحناجر، فلا يستطيعون التعبير عمّا بداخلهم، وكأنّ القلوب تضغط على الحناجر فتزيد كربهم النفسي فيرعبون ويفزعون حتى تثقل صدورهم وتمتلئ، فهي تصور حالة حرجة شديدة الضيق، قال الزمخشري: «فلا هي تخرج فيموتوا، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروحوا ولكنّها معترضةٌ كالشجا»[4]، وحالهم هذا دائمٌ

---

(١) في ظلال القرآن: مج٥/ ج٢١/٢٨٣٧.

(٢) المحرر الوجيز: ٣٧٢/٤، وينظر: البيان بلا لسان: ١٧٥.

(٣) ينظر: أساس البلاغة، مادة (أزف)، وبيان المعاني: ٥٧٥/٣.

(٤) الكشاف: ٣٣٧/٥.

مستمر؛ ما يوحي أنّ هذه الحال تجعل ما في القلب من خوفٍ وهلعٍ وفزعٍ يتحوّل إلى صرخة عشوائية لا معنى لها ؛ لأنَّهم كاظمين في نفوسهم، أي: خائفين آكنين لا يستطيعون كلاماً، وكاظمين حناجرهم، إشفاقاً من أن تخرج منها قلوبهم من شدة الاضطراب[1] وفي ذلك استشعار باليأس والضعف والهوان، وإن كانت هذه الصرخة ثقيلةً لكنها خافتةً باهتة لا تتجاوز كونها ردّ فعلٍ على الشعور الباطن، إذن تتجاوز القلوب مواقعها في المشهدين؛ لكظمهم ما بأنفسهم وقد خُتِمَ على الأفواه، وهما حركتان ترعد النفوس وتبث الخوف في المتلقي؛ لتشكلا خطاباً عامّاً يحذّر معصية الله تعالى خشيةَ موقفٍ كهذا.

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٤/١١٤.